مُقَدِّمَة

مِرْقَاةُ الحقائق

١ . مبدأ الحقيقة ـ ٢ . تطور الحقائق ـ ٣ . شأن الافتراضات التى عدت من الحقائق

١ ـ مبدأ الحقيقة

تُعبِّر الحقيقة عن مركب من الحقائق المُعَقَّدَة التى يتعذر فهمها من غير تحليل ، ونحن ، قبل أن نحاول ذلك نُقَسِّم الحقائقَ ، فنَعُدُّ منها ، موقتاً ، طائفةً من المبادىء التى هى من ضروب اليقين لدى مُعْظم الناس فى كلِّ دور[1] .

وموافقةُ الناس تلك تتناول أموراً وَهْمِيَّةً فى بعض الأحيان ، فتكون من الحقائق لدى المؤمنين ، والبشرُ قبل أن يَعْرِفوا أيةَ حقيقة حازوا غيرَ قليل من أنواع اليقين .

ونَرْجع إلى ماعرضناه فى مؤلف سابق من ضروب المنطق ومايلائمها من مبادىء فنَجِدُ للحقائق خمسةَ أنواع : الحقائق البِيُولُوجِيَّة والحقائق العاطفية والحقائق الدينية والحقائق الجَمْعِيَّة والحقائق العقلية .

---

(١) يخلط فى الغالب بين الحقيقة واليقين ، ويصيب مسيو غوبلو فى معجمه حين يفرق بينهما فيقول : « لا ينبغى أن تستعمل كلمة اليقين إلا لتعيين حالة النفس التى تعتقد حيازتها للحقيقة ، ويجب أن يجتنب الحديث عن اليقين فى قضية ما بأن يقال إنه الحقيقة أو الأمر البديهى ، فاليقين هو حال نفسية » ، ومثل هذا التعريف ما أتى به ليتره حينما قال : إن اليقين هو « اعتقاد النفس أموراً كما تتراءى لها » ، فاليقين هو معتقد والحقيقة هى معرفة .

وتتجلى الحقائقُ البيولوجيّة في حوادث الحياة العُضْويّة ، والحقائقُ العاطفية والحقائق الدينية إذ كانت شخصيةً غيرَ قائمة على برهان فإنه لادليلَ لها غير موافقة الناس عليها ، وهى تابعة لدائرة الإحساس وتكون أساساً للمعتقدات ، والحقائقُ العقلية هى غيرُ شخصية على العكس من ذلك ، فيمكن إثباتُها بالتجربة مستقلةً عن أيِّ معتقد ، وتَنِمُّ عليها مبادىء العلم التى تتألف منها دائرة المعرفة .

ومن الواضح أن ذلك التقسيم كثيرُ الإطلاق ككلِّ تقسيم ، فهو يَفْصِل ، بالحقيقة ، أموراً غيرَ منفصلة تماماً ، فمن النادر جدًّا أن يكون المبدأ عاطفيًّا أو دينيًّا أو جَمْعِيًّا أو عقليًّا على وجه الاستقلال ، والحقائقُ الدينية نفسُها ، وإن كانت من أصلٍ دينىٍّ ، تشتمل على عناصرَ عقليةٍ فى الغالب ، ومن هنا ترى أن أية حقيقة ليست حادثًا بسيطاً يمكن أن يُعبَّر عنه بصيغة موجزة ، بل هى مُرَكبة من مجموعةِ عناصرَ متباينةٍ ، وتختلف الحقائق ، على الخصوص ، بنِسَبِ العناصر المختلفة التى تدخل فى تركيبها .

قَسَّمْنا الحقائق من غير أن نُعَرِّفها ، فلْنَبْحث الآن عن الحدود التى يمكن تعريفها بها .

اختلف مبدأ الحقيقة اختلافاً عظيماً فى غُضُون القرون ، فالحقيقةُ عُدَّت فى بعضها أمراً جوهريًّا وَعُدَّت فى بعضٍ آخرمنها أمراً نفعيًّا وعُدَّتْ فى بعضٍ ثالث منها أمراً ملائماً ، وهى قد لاحت للمرتابين خطأً لا يُرَدُّ فى وقت معين .

وتَنِمُّ المعاجم على ذلك الاختلاف بوضوح ، ويمكن أن تُرَدَّ تعاريفُها ، على العموم ، إلى قول ليتْرِه « إن الحقيقة هى الصِّفَةُ التى تبدو الأمور بها كما هى[1] » ،

(١) تشتمل الطبعة السابعة لمعجم الأكاديمية على تعريف ناشز للحقيقة ، فقد جاء فيه : « أن الحقيقة هى خاصة الشىء الصحيح » وجاء فيه : « أن الصحيح هو الشىء الملائم للحقيقة » .

أو إن الحقيقة كما يقول مؤلفون كثيرون « هى مطابقة الفكر للواقع » ، فإيضاحات كهذه هى خالية من أىِّ معنًى حقيقىٍّ كما هو واضح ، وتكون المعاجم على شىء من الدقة والوضوح إذا قالت إن الحقيقة هى ما يكون عندنا من فكرٍ عن الأشياء .

والتعاريفُ العلمية أكثرُ اعتدالاً ، وهى أكثر إحْكَاماً أيضاً ، فترى العالِمَ يَطْرَح جانباً الحقائقَ التى يمتنع الوصول إليها ، عادًّا الحقيقةَ صِلَةً يُمْكِن قياسُها ، على العموم ، بين حوادثَ تَظَلُّ مجهولةَ الجوهر ، وقد وجب للوصول إلى هذه الصِّيغَة بَذْلُ عِدَّة تأملاتٍ ومجهوداتٍ فى عِدَّة قرون .

على أن هذه الصِّيغَة لا تُطَبَّق على غير المعارف العلمية ، لا على المعتقدات الدينية والسياسية والخُلُقية ، فمصدرُ هذه المعتقدات إذ كان عاطفياً أو دينياً أو جَمْعِيًّا فإن هذه المعتقدات تقوم ، فقط ، على موافقة جميع من يَرْضَوْن بها .

وهى يُرْضَى بها لبداهتها المُفْتَرَضَة ، أو لِما يلوح من عدم إمكان قبول ما يعارضها ، أو لإجماع الناس عليها على الخصوص ، ويَظَلُّ هذا الإجماعُ مقياسَ الحقائق التى ليس لها صبغةٌ علمية .

ويُخَيَّل للقائلين بمذهب الذرائع (البراغْماتِيَّة) ، مع ذلك ، أنهم اكتشفوا فى المنفعة مقياساً جديداً للحقيقة ، فقد قال ويلْيَم جيمْس :

« ليس الحقيقىُّ سوى ما نَجِدُه نافعاً فى نظام أفكارنا ، وهو كالخير الذى نَجِدُه نافعاً فى نظام أفعالنا » .

ولا نوافق على هذا التعريف أبداً ، فالمنفعةُ والحقيقة أمران غيرُ متشابهين كما هو ظاهر ، فقد نُضْطَرُّ إلى قبول ماهو نافع من غير أن نَخْلِطه بالحقيقة لهذا السبب

وحدَه ، وسنعود إلى هذه المسئلة حينما ندرس مذهب الذرائع فى فصل آخر .

٣ — تطورُ الحقـائق

كان مبدأ الحقيقة ملازماً لمبدأ الثّبات ، فكان يتألف من الحقائق كَيْنُونَاتٌ ثابتةٌ مستقلة عن الزمان والناس .

وكيف كان يمكن الحقائقَ أن تتَحَوَّل فى عالَم لم يتغير قطّ ؟ كانت الأرض والسماء والآلهة تُعَدُّ سَرْمَدِيَّةً ، وذواتُ الحياة وحدَها هى التى كانت تعانى سُنَنَ الزمن .

وكان معتقد عدم تَحَوُّل الأشياء وما ينشأ عنه من اليقين سائداً إلى أن حَكَمَت عليه مبتكرات العلوم بالأفول ، فقد أثبت علم الهيئة أن الكواكب ، التى كان يُفْتَرض استقرارُها فى الفلك ، تَسْبَح فى الفضاء بسرعة تَقْلِب الخيال ، وأثْبَت علم الحياة أن الأنواع الحَيَّة التى كانت تُعَد غيرَ مُتَبَدِّلَة تتَحَوَّل ببطوء ، حتى إن الذَّرَّة نفسها خَسِرت أَبَدِيَّتَها بانقلابها إلى مجموعة قُوًى متكاثفة إلى حين .

فإزاء مثل تلك النتائج تضعضع مبدأ الحقيقة بالتدريج حتى بدا لكثيرٍ من المفكرين خالياً من المعنى الحقيقى ، فهنالك تداعت المعتقدات الدينية والفلسفية والخلقية ، والنظرياتُ العلمية أيضاً ، بالتتابع غيرَ تاركة فى مكانها سوى انصباب أمور زائلة باستمرار .

ويظهر أن هذا يُؤَدِّى إلى نقض مبدأ الحقائق الثابتة نقضاً تامًّا ، وأعتقدُ ، مع ذلك ، إمكانَ التوفيق بين مبدأ الحقيقة المطلقة ومبدأ الحقيقة العابرة ، ويكفى إيرادُ بعض الأمثلة البسيطة لتسويغ هذا العَرْض .

فمن المعلوم أن الفوتوغرافية تَعْرِض ، بواسطة الصُّوَر التى لا يَحْتَمِل التقاطُها زمناً يزيد على جزء من مئة جزء من الثانية الواحدة ، انتقالَ أحد الأجسام السريع ، كالحصان الراكض مثلاً .

وتدلُّ الصورة التى تُلْتَقَط ، هكذا ، على وجه واحد من حركات الحقيقة المطلقة الزائلة معاً ، فهى مطلقةٌ طَرْفَةَ عَيْن ، غيرُ صادقةٍ بعد هذه الطَّرْفَة ، فيجب أن تُسْتَبدل بها صورةٌ أخرى ذاتُ قيمة مطلقة زائلةٌ معاً أيضاً ، شأنُ الصُّوَر المتحركة .

ويمكن تطبيق تلك المقايسة على مختلف الحقائق مع تعديل مقياس الزمن فقط ، فالحقائقُ ، وإن كانت متقلبةً ، ذاتُ علاقةٍ بالواقع كعلاقة الصُّوَر الفوتوغرافية الخاطفة ، التى تكلمنا عنها ، به أو كانعكاس الأمواج على المرآة ، والصورةُ ، وإن كانت متحولةً ، صادقةٌ على الدوام .

وقد لاتدوم الحقيقة المطلقة فى التحولات السريعة مدةً تزيد على جزء واحد من مئة جزء من الثانية الواحدة ، وتكون وَحْدَة الزمن لبعض الحقائق الخُلُقية بضعةَ أجيال ، وتكون وَحْدَة الزمن للحقائق التى تَمَسُّ ثباتَ الأنواع ملايينَ السنين ، وهكذا ترى أن دوام الحقائق يترجح بين بضعة أجزاء من مئة جزء من الثانية الواحدة وَعِدَّةِ ألوف من القرون ، وهذا يَعْنِى أن الحقيقة الواحدة قد تكون مطلقةً عابرة معاً .

وتلك المقابلاتُ ، وإن كانت صحيحةً فى أمر الحقائق المحسوسة المستقلة عنا ، ليست بهذه الدرجة من الصحة فى أمر اليقين الباطنى كالمبادىء الدينية والسياسية والخُلُقية على الخصوص ، وتلك المقابلاتُ ، إذ كانت لا تشتمل على غير نصيب

ضئيل من الصحة ، تجدُها مُقيَّدةً برأينا فى الأمور بحسب الزمن والبرق ودرجة الحضارة الخ ، فمن الطبيعى أن تختلف تلك المقابلات إذَنْ ، فالحقيقةُ التى تلائم أفكار زمن واحتياجاته لاتكفى لزمن آخر .

ولا رَيْبَ فى أن مبدأ الحقيقة الثابتَ والمُوقَّت مما سَيَحِلُّ فى فلسفة المستقبل محلَّ حقائق الماضى الثابتة أو محلَّ سَلْبِيَّات الساعة الراهنة .

حقًّا أن من النادر أن يختار الإنسان يقينَه كما يشاء ، والمحيطُ هو الذى يَفْرِض عليه هذا اليقين ، وهو يتَّبِع تقلباتِه ، وفى هذا سرُّ تَغَيُّر الآراء والمعتقدات لدى كل زُمْرة اجتماعية .

أَجَلْ ، قد تتقلب البيئات التى تؤثر فى مبادئنا ببطوء ، ولكنها تتغير فى نهاية الأمر على الدوام ، ويشابه سَيْرُ العالم جريانَ النهر كما وُصِف فى الفلسفة القديمة ، ويجب ، مع ذلك ، إكمالُ هذا الوصف بأن يقال إن النهر يَجُرُّ ذَرَّاتٍ متشابهةً تقريباً ، على حين يدحرج الزمنُ عناصرَ متبدلةً باستمرار فى مجرى معظم حوادث الكَوْن ، ولاسيما حوادثَ الحياة الاجتماعية .

وتتبدل تلك العناصر حَتْماً ، وذلك لأن كلَّ موجود ، نباتاً كان أو حيواناً أو إنساناً أو مجتمعاً ، يَخْضَع لقُوَّتَيْن متحركتين بلا انقطاع فيتحول بهما بالتدريج ، وتانك القوتان هما : البِيْئات الغابرة التى تَحْفَظ الوِراثةُ سِمَتَها والبِيْئاتُ الحاضرة ، وبهذين المُؤثِّرَيْن تُقيَّد كلُّ حياة باطنية ، ومن ثَمَّ كلُّ ما يُعبِّر عنهما من حقائقَ خُلقية واجتماعية ، ولو أسرع الزمان فى سَيْره ، مثلاً ، كما فى الصور المتحركة لبلغت الحياة من الاقتضاب ما تُقْلَب معه مبادئُنا الخُلقية رأساً على عَقِب ، فتصبح حياة الشخص إذ ذاك أمراً لا يؤبه له ولا يَكْتَرِث الشخص إلا لحياه نوعه ، ويستحوذ

حُبُّه الشديد للآخرين على جميع علاقاته ، ولو أبطأ الزمن فى سيره على عكس ذلك فأخذت الحياة تدوم عِدَّة قرون لَفَدَت الأَثَرَة القاسية صِفةَ الإنسان البارزة .

والخلاصة هى أن الحقائق البشرية تتطور كجميع الحادثات الطبيعية ، فتُولَد وتنمو وتزول ، فلذلك جعلنا عنوانَ هذا الكتاب : حياة الحقائق .

وسوف تتجلى فائدة ذلك فى غير فصل من فصول هذا الكتاب ، ولا سيما فى دراستنا لتكوين الأخلاق .

٣ — شأن الافتراضات التى عُدَّت من الحقائق

يُعْتَرَض على ما تقدم ، لا رَيْب ، بأن كثيراً من المعتقدات الدينية أو الخلقية التى هى وجوهٌ من اليقين لم تكن قطّ من الحقائق ولا يمكن تصنيفها فى زُمْرة الحقائق ، حتى المُوَقَّت منها .

فنُجيب عن ذلك بأن نقول إن أدعى الأقاصيص الدينية للدَّهَش ينطوى ، فى الغالب ، على حقائقَ لا مِراء فيها ، ويمكن قياس هذه الأخيرة بقِصَص علماء الأخلاق التى تشتمل على حقائقَ عميقةٍ بين تَخَيُّلها ، أَجَلْ ، إن الذئب لا يحاور الحَمَلَ كما قَصَّ لافونْتِن ، ولكن نتيجة تلك المحاورة فى ذهن الأقوى تحتوى على حقيقة لا جِدَال فيها مع ذلك .

ومن الصحيح ، أيضاً ، أن يَهْوَه لم يُمْلِلْ على موسى ألواحَ الشريعة ، ومما لا يَقِلُّ عن هذا صِحَّةً ، مع ذلك ، أنه لولا ما اشتملت عليه هذه الألواح من الوصايا ما تَمَّ للشعب اليهودىِّ فلاحٌ ، فكان لا بدَّ من تَخَيُّل يَهْوَه لمنح الوصايا العشر سلطاناً لا مُحَاجَّةَ فيه .

إذَنْ ، قد تبدو الحقيقة تحت لباسٍ وهميّ ، ولا تنفكُّ تكون حقيقة مع ذلك ، فالتعاليمُ الخلقية والزواجرُ المختلفة التى لا يقوم بغيرها مجتمعٌ تفرض سلطانَها على الناس حين تستند إلى نفوذ الآلهة المرهوب .

ومن أفدح أغاليط العقليين المعاصرين عدمُ إدراكهم أن كثيراً من الحقائق العقلية لا يُرْضَى به فى الغالب إلا بعد صَوْغه فى قَالَب غير عقلىّ .

و إذا كان يُرفَض نَعْتُ المعتقدات الدينية والخلقية بالحقائق ، مع أنها صحيحةٌ فى عيون أتباعها فإنه يجب عَدُّها من نوع الافتراضات العظيمة التى لا غُنْيَةَ للبشر عنها ، والتى يَعُدُّها العلم من الحقائق المُوَقَّتَة .

ويجب علينا تِجاه الحوادث غيرِ المُدْرَكة ، كعِلَّة الأشياء الأولى وأصولِ الكَوْن والحياة وسُنَن التطور الاجتماعىِّ الخ ، أن نُمْسِك عن الإيضاح أو نختلق بعض الفرضيات .

وكان لهذه الفرضيات نوعان حتى الآن ، فبعض هذه الفرضيات يقضى بتدخل عزائم موجوداتٍ علوية ، و بعضها الآخر يقضى بالتَّجْرِبة والملاحظة فقط ، فالثانية هى الفرضيات العلمية ، والأولى هى الفرضيات اللاهوتية .

وتقوم العلوم كلُّها ، ومنها الرياضيات ، على فرضيات ، فقد بَيَّنَ هنرى پوانكَارِه ضرورتَها فى كتابه « العلم والفرضية » الذى أَلَّفه إجابةً إلى طلبى .

وإننى ، كمثالٍ على أهمية الفرضيات ، أذكرُ مثالَ الأثير المنيع فى الفيزياء

ومثالَ الذَّرَّة غيرِ المنظورة فى الكيمياء ، فالأثيرُ والذرة هما من القُوَى العلوية التى نعزو إليها ، مضطرين ، من الخواصِّ العجيبة ، المتناقضة فى الغالب ، مالابدَّ منه لتفسير الحوادث .

والعلمُ لا يَكْتَرِث لتلك المتناقضات ، والعلمُ يَعْرِف ، فقط ، أن الفيزياء تنهار بغير فَرْضية الأثير الضرورية ، فمن المتعذر أن يُستغنى عن هذه الفرضية كما كان يتعذر الاستغناء عن الآلهة فى تفسير الكَوْن .

ويجب، إذَنْ ، عَدُّ الفرضيات الدينية والخُلقية والاجتماعية من طِراز الفرضيات العلمية ، فتلك وهذه وسائلُ قويةٌ للعمل ومُحْدِثاتٌ للحقائق ، والفرضيات الدينية إذا لم تكن صحيحةً صِحَّةَ الذَّرَّة والأثير فإنها من الضرورات اللازمة مثلهما ، فبها قامت المجتمعات والحضارات وتقدمت .

وليس بضائرٍ للعلم أن يَظهر فساد إحدى فرضياته فيما بعد ما أدَّت هذه الفرضية إلى بعض الاكتشافات ، وليس بضائرٍ ، أيضاً ، أن يظهر عدمُ صِحَّة الافتراضات الدينية أو السياسية أو الاجتماعية ذاتَ يوم ما عاشت الأمم بهذه الافتراضات التى انتحلتها وأوجبت عظمتها ، فبأهمية هذا الشأن ، لا بقيمته العقلية ، يجب أن يُحْكَم فى أمره .

ولا يُلْتَفَت فى ذلك إلى الدقائق اللاهوتية أبداً ، بل يُنْظَر إلى النتائج المادية الواضحة ، فتاريخُ إحدى الحضارات هو تاريخ فرضياتها ، ومن الفرضيات خَرَج من العدم ما نراه من الأهرام والمعابد والمساجد والكنائس وجميع العجائب التى

أوجبتها عصورُ الإيمان ، وبافتراض دينيّ قامت دولةُ محمد المظمى ، وبافتراض ديني آخر انقضّ الغربُ على الشرق أيام الحروب الصليبية ، وبافتراض دينيّ ، أيضاً فرّ البيوريتان الإنكليزُ من الاضطهاد راغبين في ممارسة مذهبهم فأنشأوا في براري أمريكة المهجورة مستعمرةً صغيرة لم تَنْشَب أن تحوّلت إلى جمهورية الولايات المتحدة الواسعة بعد حين .

والإنسانُ لو لم يتّخِذ من الفرضيات مايُسَيِّره لعاد إلى دور الهمجية ، فالفرضيات وَجَّهَت الإنسان في طريقه الحائرة ، وأعانته على إيجاد ما يلائمه من الحقائق ، أي ماينا سب ذهنيةَ زمنه ومزاجَ عِرْقه النفسيّ ، وبدَوْر الفرضيات الوهمية أُعِدّ عصرُ العقل .

ولذلك لا ينبغي لنا أن نَزْدَرِيَ الفرضيات التي عاش بها آباؤنا ، أَجَلْ ، إن كثيراً من هذه الفرضيات لم يكن غيرَ أوهام لاريب ، بَيْد أن هذه الأوهام أوجدت لدى ملايين البشر آمالاً تُبْصِر فيها سِرّ السعادة وأوجبت حدوث أنفع الحقائق ، وأُنكرَ شأن الفرضيات العظيم في تطورنا طويلَ زمنٍ ، مع أن الأمم لم تَسْتَغْنِ عنها قطّ ، وستظلّ محتاجةً إليها في كلّ وقت على مايحتمل ، فالبشريةُ العاطلة من الفرضيات لا تدوم كثيراً .